الفصل السادس

المسيحية والسيف

كانت النية تتجه إلى أن يكون «المسيحية والسيف» عنوانا للفصل السابق: كيف انتشرت المسيحية في أوروبا، لكني آثرت التريث إلى ما بعد عرض السبل والأساليب التي استخدمت لإدخال المسيحية في أوروبا، حتى تكون عناصر الموضوع قد اكتملت، وظهرت الحقائق، وتعدلت المفاهيم التي علقت بعقول مئات الملايين من البشر ـ مسيحيين وغير مسيحيين ـ لقرون عديدة، ولا تزال تعلق بها مفاهيم خاطئة إلى الآن.

وإذا استثنينا أفرادا أو جماعات من مختلف الشعوب والأجناس، عبر قرون طويلة، قبلت المسيحية دينا عن قناعات شخصية، فمما لا شك فيه أن تحول الجموع الكبيرة من الأوربيين إلى المسيحية قد تم تحت رعب السيف، وطلبا لمكاسب مادية لا علاقة لها بمملكة السماء وعطاياها الأخروية. ويكفي التذكرة بما فعله شارلمان حين قتل في يوم واحد ٤٥٠٠ إنسان رفضوا التنصير، ثم ما فعلته البابوية حين فوضت فرسانها بغزو شعوب البلطيق والاستيلاء على أراضيها ثمنا لتقديم المسيحية إليها!.

يقول هربرت فيشر: «إن المؤرخ سوف يلاحظ **أن تحول أوروبا إلى المسيحية** – الذي أعقب العصر البطولي الأول بفقره وحميته- **كان مرجعه بالدرجة الأولى إلى الحساب المادي أو الضغط السياسي**. إن القوط، والفرنجة، والسكسون والإسكندنافيين، لم يقبلوا المسيحية دينا بصفتهم أفرادا قادهم إليها نور داخلي، **لكنهم قبلوها كشعوب تعرضت لإيعاز على نطاق واسع وتحت توجيه الزعماء السياسيين.**

ليس من الممكن إنكار أنه في كل جيل كان هناك متحمسون دينيون لمس قلوبهم الجمال الأخلاقي للفضائل المسيحية، أو سموا بالتأمل في الطبيعة الإلهية. لكن الجموع الكبيرة من أولئكم الذين تحولوا من الوثنية إلى المسيحية، في ظل الإمبراطورية الرومانية، وفي صدر العصور الوسطى، لم تؤثر فيهم إلا قليلا تلك الاعتبارات التي تتعلق بالعقيدة المحضة أو الأخلاقيات، ولم يتعرضوا لتغييرات قلبية في تحولهم.

ومن المناسب أن نتذكر أن قبول العالم البربري للمعتقدات المسيحية لم ينتج عنه مثل ذلك التحول الفجائي والعميق الذي قد يفهم من كلمة التحول. فما زالت أوروبا مسرحا لآلام مبرحة، وشهوات بهيمية، وخرافات منحطة»[١]

ويتفق المبشر ستيفن نيل مع ما قرره المؤرخ هربرت فيشر فيما يتعلق بحقيقة الأوضاع والعوامل التي أدت إلى تحول أوروبا من الوثنية إلى المسيحية، ومقدار الصدق في ذلك التحول، إذ يقول: «لامناص من التسليم بأن عمليات التنصير الأولى كانت سطحية جدا، لكن هذا كان يعقبه في كل مرة فترة طويلة من البناء الذي يجعل العقيدة جزءا من تراث الشعب. **وإن التحالفات السياسية التي غالبا ما زادتها المصاهرة قوة ، تشكل جزءا من الصورة. وكما حدث في حالات كلوفيس (ملك فرنسا) واثلبرت (ملك كنت) فإنه يبدو أن تأثير الملكات المسيحيات قد لعب دورا بارزا في عملية التحول إلى المسيحية»**[٢]

لقد سبق أن رأينا المبشر ستيفن نيل وهو يتلمس المعاذير لعمليات التبشير القهرية، كما حدث في النرويج حين استسلم الشعب لإصرار الملك على تنصيره تحت ظل السيف، فاعتبر ذلك حلا ديمقراطيا سعيدا. وهو الآن يلخص وصف عملية تحول أوروبا إلى المسيحية فيقول:

«لقد كان عملا طويلا وبطيئا، شاركت فيه كل أنواع الصفات والأفعال، ابتداء من الطهارة الخالصة البطولية إلى أن نصل إلى أحط أنواع الخداع والعنف»[٣]

---

(1) H.A. FISHER: A HISTORY OF EUROPE, THE FONTANA LIBRARY, LONDON, 1964 ص ١٩٩، ٢٠٠

(2) STEPHEN NEIL: A HISTORY OF CHRISTIAN MISSIONS, PENGUIN BOOKS, LONDON, 1964 ص ٩٠

(3) STEPHEN NEIL: A HISTORY OF CHRISTIAN MISSIONS, PENGUIN BOOKS, LONDON, 1964 ص ١١٢

لقد كان السيف والعنف وسائل رئيسية لتنصير الشعوب الأوروبية، وكانت الأطماع السياسية والمكاسب المادية دوافع رئيسية أغرت الملوك والحكام بالسير في هذا السبيل. من أجل ذلك لم يقتصر الأمر على تنصير الوثنيين، لكنه تعداه إلى اليهود المؤمنين بالله والتوراة وأسفار النبيين. «**فرغبة في توحيد إمبراطوريته، بدأ ليو الثالث تحويل اليهود إلى المسيحية بالقوة، لكن ذلك (كما يقول ستيفن نيل) يصعب اعتباره عملا تبشيريا**»(١)

الحروب المسيحية:

إذا كان السيف هو الوسيلة الرئيسية لنشر المسيحية - هذه حقيقة تاريخية- فقد كان كذلك هو الوسيلة الرئيسية لتعامل المسيحية مع العالم غير المسيحي، كما حدث في الحروب الصليبية مع العالم الإسلامي، وأخطر من ذلك أن كان السيف هو الوسيلة الوحيدة لتعامل المسيحية مع نفسها، كما حدث في الحروب الصليبية المحلية بين مختلف القوى المسيحية الأوروبية، وعلى رأسها قوى البابوات خلفاء المسيح في الأرض. ولنأخذ مثالا صارخا مما حدث في الحرب الصليبية الرابعة مع العالم الإسلامي.

لقد بدأت تلك الحروب الصليبية بدعوة من البابا إيربان الثاني عام ١٠٩٥ إلى حكام أوروبا وشعوبها بالكف عن الحروب المحلية، والخروج بدلا من ذلك لمحاربة العالم الإسلامي والاستيلاء على خيراته. وبعد إعلانه أن المسلمين كفرة تستباح دماؤهم فقد دعا سامعيه إلى تخليص القبر المقدس من أيديهم، مع وعد بغفران الخطايا لقتلى تلك المعارك بمقتضى التفويض الرباني الممنوح له!..

حتى إذا كانت الحملة الصليبية الرابعة، أعلن البابا أنوسنت الثالث «علنا عن رغبته في الدعوة إلى حرب صليبية جديدة، فكتب في سنة ١١٩٩ إلى إيمار –بطريرك بيت المقدس يطلب منه تقريرا مسهبا عن مملكة الفرنج.. واتخذ أنوسنت خطوة تمهيدية لذلك بأن استهل المفاوضات مع الإمبراطور البيزنطي الكسيوس الثالث لتوحيد الكنيستين. ويعتبر فولك

(1) STEPHEN NEIL: A HISTORY OF CHRISTIAN MISSIONS, PENGUIN BOOKS, LONDON, 1964 ص ٨٣

نيللي، الرحالة الذي طالما سعى لإثارة حرب صليبية، أكبر مبشر للبابا في فرنسا.. وبناء على **طلب البابا أنوسنت الثالث طاف فولك بالبلاد يحث أهل الريف على أن يتبعوا سادتهم إلى الحرب المقدسة..**

لم يتيسر تنظيم الحملة في وقت وجيز، فكان أول ما واجهه «البابا» من مشاكل هو توفير السفن اللازمة لنقل رجال الحملة إلى الشرق.. وفي مقابل خمس وثمانين ألف قطعة فضية كلونية يؤديها الصليبيون، وافقت البندقية في ٢٨ يونية ١٢٠٢ على أن تمد الحملة الصليبية من الوسائل والمؤن ما يكفي لمدة سنة.. **بشرط أن تحصل البندقية على نصف ما تفتحه الحملة من البلاد..** غير أن جمهورية البندقية لن تقدم السفن ما لم يتم الدفع فورا..

ومن المعروف أن الحرب ظلت سجالا بين جمهورية البندقية وملك المجر في عشر السنوات الماضية من أجل السيطرة على دالماتيا. وقد انتقلت منذ زمن قريب مدينتها الرئيسية زارا إلى حوزة المجريين، فجرى إخطار الصليبيين بأنهم إذا اشتركوا في حملة تمهيدية لاستعادة زارا، فسوف تستأنف الحملة سيرها وتؤجل تسوية الديون.. والواقع أنه تم الاتفاق من وراء ستار بين بونيفاس مونتفيرات (قائد الحملة الصليبية) الذي لم يكن عنده إلا حظ ضئيل من الورع المسيحي وبين دوج البندقية أنريكو داندولو..

ولقد كان داندولو مستعدا لأن يناقش مع بونيفاس الخطط التي ترمي إلى توجيه حملة لمهاجمة القسطنطينية، غير أنه لابد في الوقت الراهن من المحافظة على ما للحملة الصليبية من مظهر خادع.

ولم تكد تتم الموافقة على شن هجوم على زارا، حتى جرى قداس ديني في كاتدرائية القديس مرقس بالبندقية، حيث اتخذ الدوق وكبار مستشاريه الصليب وسط مظاهرة..

لم تلبث المدينة «المسيحية» بعد أن تعرضت لهجوم عنيف أن استسلمت.. فاستباحها العساكر، **ثم نشب القتال بعد ثلاثة أيام بين البنادقة والصليبيين أثناء اقتسام الغنيمة..**

وفي أوائل سنة ١٢٠٣ قدم إلى زارا رسول من ألمانيا من قبل فيليب (دوق سوابيا) إلى بونيفاس، يحمل إليه عرضا محددا من صهره ألكسيوس (ابن الإمبراطور المخلوع المسجون في القسطنطينية إسحق أنجيلوس، والذي هرب إلى صهره فيليب في ألمانيا) بأنه إذا توجهت الحملة الصليبية إلى القسطنطينية وجعلت ألكسيوس على عرش الإمبراطورية، فعندئذ يتكفل ألكسيوس بأن يؤدي للصليبيين ما زالوا يدينون به من أموال للبنادقة.. ولما جرى عرض الاقتراح على الصليبيين لم يخالفه إلا عدد قليل..

لقد فكر رجال الدنيا بالجيش في كنوز القسطنطينية وأقاليمها التي اشتهرت بالرخاء، وتطلعوا إلى الأمل في استباحتها ونهبها. كما أن بعض البارونات ومنهم بونيفاس نفسه، ازداد تطلعهم إلى ما هو أبعد من ذلك، ولعلهم قدروا أن ما يقع على شواطئ بحر إيجه من الضياع نفوق في استهوائهم كل ما يصح أن يصادفوه منها في بلاد الشام التي حلت بها الأضرار. **فما كان الغرب (المسيحي) يكنه منذ زمن طويل من كراهية للعالم المسيحي في الشرق، هيأ لداندولو وبونيفاس الفرصة لأن يحملوا الرأي العام على مساندتهما..**

اكتفى البابا بأن أصدر أمرا بأنه ينبغي ألا يجري الاعتداء على مسيحيين آخرين إلا إذا كانوا فعلا يعوقون الحرب المقدسة.

كان خيرا له في المدى البعيد أن يعلن رفضه صراحة وبصفة قاطعة.. أما اليونانيون الذين كانوا دائما يرتابون في نوايا البابا ويجهلون تعقيدات السياسة الغربية، فإنه تراءى لهم أن ما أصدره البابا من قرار حرمان هزيل يعتبر دليلا على أنه كان وراء المؤامرة..

وصل ألكسيوس إلى زارا قادما من ألمانيا، وبعد بضعة أيام أقلعت الحملة بعد أن توقفت فترة من الزمن في دورازو حيث تم الاعتراف بألكسيوس (الرابع) إمبراطورا.. (وبعد هروب الإمبراطور ألكسيوس الثالث من القسطنطينية) جرت مراسم الصلاة بكنيسة القديسة صوفيا.. ثم تتويج ألكسيوس الرابع قسيما لأبيه الإمبراطور.

ولقد ضاق سكان المدينة (القسطنطينية) ذرعا بمنظر فرسان الفرنج المتغطرسين يجوسون بخيولهم شوارع مدينتهم، وتوقفت الحركة التجارية، ودأبت جماعة من عساكر

الغرب السكارى على نهب القرى وضواحي المدينة.. وأتى حريق مروع على حي بأكمله بالمدينة حينما عمد بعض الفرنسيين بدافع التقوى (!!..) إلى إشعال الحريق بمسجد يؤمه التجار المسلمون القادمون إلى المدينة..

قدم وفد من الصليبيين في فبراير ١٢٠٤.. وطلب من ألكسيوس الرابع المبادرة إلى الوفاء بوعوده، فلم يسعه إلا الاعتراف بعجزه.. فاندفع الرعاع إلى كنيسة القديسة صوفيا، فأعلنوا بها عزل ألكسيوس الرابع.. الذي جرى إلقاؤه في السجن حيث لقى مصرعه.. ولم تمض إلا بضعة أيام حتى توفى والده إسحق كمدا وحزنا.. فتولى العرش مورتسوفلوس واتخذ اسم ألكسيوس الخامس.. غير أن الثورات استمرت.. وكان أول هجوم شنه الصليبيون في ٦ أبريل ارتد على أعقابه، وتكبد الصليبيون فيه خسائر فادحة. ثم عاود الصليبيون هجومهم فاشتد القتال على القرن الذهبي.. وتدفق على المدينة الفرنج والبنادقة، وهرب مورتسوفلوس وزوجته.. **واستقر الدوج وكبار الصليبيين في القصر الكبير، وجرى إخطار عساكرهم بأن لهم أن يستبيحوا المدينة ثلاثة أيام»**[1]

لقد رأينا في هذه العجالة التي عرضناها عن الحرب الصليبية الرابعة، كيف كانت الصفقة مع البندقية عملا استعماريا فاضحا تحصل بمقتضاه على نصف الأراضي التي يفتحها الصليبيون. وإذا جاز للصليبيين أن يبتلعوا ذلك الطعم المهلك باعتباره تخريبا في بلاد إسلامية نعتها البابا بالكفر، فمما لا يمكن قبوله وفق جميع المقاييس أن تعتبر الحرب بين البندقية والمجر حربا صليبية، يقام لها قداس ويحمل فيها الصليب ويستبيح فيها المسيحيون مدينة زارا المسيحية للسلب والنهب، ثم لا نلبث تلك الوحوش الضارية المتحالفة – من الصليبيين والبنادقة– أن تقتتل عن اقتسام الغنائم.

---

(١)تاريخ الحروب الصليبية: ستيفن رنسيمان –ترجمة الدكتور السيد العريني– دار الثقافة– بيروت: ج ٣ – ص ١٩٥ -٢٢٢

حتى إذا جاءت فكرة غزو القسطنطينية، داعب خيال الصليبيين تلك المغانم الكبيرة التي يجنيها الغرب المسيحي الكاثوليكي من الشرق المسيحي الأرثوذكسي، فسارعوا إلى تنفيذها لعداء متأصل بين إخوة العقيدة المسيحية.

أما الآن وقد سقطت القسطنطينية، التي كانت توصف بأنها زينة الممالك الدنيوية، فماذا فعل بها الصليبيون؟

إن هذا ما يحدثنا عنه ستيفن رنسيمان إجمالا، فيصفه بأنه عمل متوحش ليس له نظير في التاريخ. ثم يعرضه علينا مفصلا بقوله:

«لقد ظلت المدينة العظيمة تسعة قرون عاصمة للمدينة المسيحية، فزخرت بما تخلف عن بلاد اليونان القديمة من الأعمال الفنية، وحفلت بما أجراه صناعها المهرة من الروائع. والواقع أن البنادقة أدركوا قيمة هذه الأشياء، فاستولوا كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا على الكنوز ونقلوها إلى مدينتهم، فزينوا بها الميادين والكنائس والقصور.

أما الفرنسيون والفلمنكيون فتسلطت عليهم الشهوة للتدمير، فاندفعوا كالرعاع المسعورة يجوبون الشوارع ويغشون الدور، ينتزعون كل ما يتلألأ ويلمع، ويدمرون كل ما لم يستطيعون حمله. ولم يتريثوا إلا لكي يقتلوا أو ينهبوا أو يقتحموا مستودعات النبيذ لينتشوا منها. ولم يفلت من التخريب الأديرة والكنائس والمكتبات، بل حدث في كنيسة القديسة صوفيا ذاتها أن جرت مشاهدة العساكر السكارى يمزقون الستائر الحريرية، ويحطمون الأواني الفضية الكبيرة، ويدوسون بأقدامهم الكتب المقدسة والأيقونات.

وبينما كانوا يتبادلون الشراب في أواني المذبح مبتهجين، تربعت عاهرة على كرسي البطريرك وأخذت تردد أغنية فرنسية بذيئة. وتعرضت الراهبات للاغتصاب في أديرتهن. ولم تجر التفرقة بين القصور والأكواخ فيما تعرضت له من الهجوم والتدمير. وأخذ الجرحى من النساء والأطفال يلفظون أنفاسهم في الشوارع. وظلت مناظر النهب وسفك الدماء المريعة مستمرة ثلاثة أيام، حتى أضحت المدينة الضخمة الجميلة شبيهة بسوق اللحوم. **وهتف المؤرخ نكتياس في صدق: إن المسلمين أكثر رحمة منهم.**

أدرك اللاتين آخر الأمر أن هذا التدمير لم يكن في صالح أحد من الناس، ولم يعد الأمر إلى نصابه إلا حينما أرهقهم سوء استخدام الحرية، فكل من سرق تحفة ثمينة أرغم على أن يتنازل عنها لنبلاء الفرنج، وتعرض تعساء الحظ من السكان للتنكيل والتعذيب حتى يكشفوا عن السلع التي عملوا إلى إخفائها. وعلى الرغم من أن قدرا كبيرا من الغنيمة تعرض للدمار فإن كميتها مازالت بالغة الضخامة..

وتقرر تقسيم كل هذه الغنيمة وفقا لأحكام المعاهدة بأن صار للصليبيين ثلاثة أثمانها، وللبنادقة ثلاثة أثمانها، بينما صار الربع من نصيب الإمبراطور المقبل.. وفي ١٦ مايو سنة ١٢٠٤ جرى الاحتفال بتتويج بلدوين (إمبراطورا صليبيا) في كنيسة القديسة صوفيا.. إن الفتحين المظفرين (الصليبيين) لم يتبينوا في غمرة فرحتهم سنة ١٢٠٤ ما ترتب على حملتهم من نتائج جوفاء، كما أن معاصريهم بهرهم أيضا الفتح.

إذ حدث أول الأمر أن عم الفرح والسرور أنحاء العالم اللاتيني «المسيحي الغربي»، ومع ذلك تساءل الشاعر الكلوني الساخر جيوه دي بروفنس في قصائده **لماذا أجاز البابا توجيه حملة صليبية لقتال المسيحيين**.. على أن هؤلاء المخالفين كانوا قلة نادرة.

فمهما كانت المخافات التي أحس بها البابا أنوسنت الثالث من تحول الحملة الصليبية إلى القسطنطينية، **فإنه كان أول الأمر مبتهجا. ففي رده على رسالة تفيض فرحا وسرورا تلقاها من الإمبراطور بلدوين يتباهى فيها بالنتائج العظيمة القيمة للمعجزة التي صنعها الله، كتب أنوسنت أنه يطرب لما صنعه الله، وأعلن موافقته دون تحفظ.**

وذاع في أنحاء الغرب أغاني المدح، وبلغ الحماس أشده حينما أخذت المخلفات الدينية القيمة تصل إلى فرنسا وبلجيكا. وجرى إنشاد الترانيم احتفالا بسقوط المدينة الضخمة الملحدة القسطنطينية»[١]

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية: ستيفن رنسيمان – ترجمة الدكتور السيد العريني – دار الثقافة – بيروت: ج٣ – ص ٢٢٢ – ٢٣٠

وهكذا: ظل السيف يعمل مع المسيحية..

فقد كان أداتها الرئيسية في الذيوع والانتشار، كما بقى أداتها الرئيسية في التسلط والقهر وتحقيق المكاسب الدنيوية باسم المسيح.

والمسيح **من كل ذلك براء..**

لقد صدق الفنان الذي رسم غلاف المرجع الهام: «تاريخ إرساليات التبشير المسيحية» مع نفسه ومع الحقيقة، حين رمز لمحمل ذلك العمل، **بنصل سيف ينتهي بصليب**. فتلك هي الحقيقة التي لا مفر من التسليم بها.

وإذا كان المسيح قد أعلن أن **من قال لأخيه «يا أحمق، يكون مستوجب نار جهنم»** فمن باب أولى أن يكون كل الذين حملوا السيف باسم المسيح وقتلوا ونهبوا – ولا يزالون – قد استوجبوا بحق: ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾[إبراهيم: ٢٩]

❊❊❊❊